

بلاغة الحروف العربية في القرآن الكريم

أستاذ مشارك - قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الملك فيصل - المملكة العربية السعودية

د. عثمان محمد عثمان الحاج كنه

مستخلص:

تناولت الدراسة دلالة وبلاغة الحروف العربية وهي حروف المباني وحروف المعاني وفي هذا الإطار تم اختيار نماذج من حروف الجر وحروف العطف والاستفهام، حيث تعد حروف المعاني من القضايا المهمة لا سيما إذا ارتبطت بالتوجيه الدلالي والمعنى، وبيان المعنى والأثر الذي أعطاه الحرف للآية، وإبراز قضية التناوب والزيادة، ومن خلال هذا العرض أمكن التعرف على مدي بلاغة القرآن الكريم في نسقه واختيار الفاظه وحروفه، ومعرفة إعجاز نظمها، وقد ارتبطت معاني هذه الحروف بالنص القرآني فكان الاستشهاد من واقع الآيات في بيان معانيها وأحكامها، حيث استخدم القرآن الكريم الحرف على نحو معجز يعني الحركة تناسب المعنى والحرف يناسب المعنى، الله سبحانه وتعالى حين يعطينا هذا الأمر للإحكام ومزيد الإحكام على مستوى الحركة، على مستوى الحرف ثم على مستوى الكلمة والآية والسورة والقرآن كله يظهر أن الإحكام في هذا الكتاب، على ضوء ذلك اقتضت طبيعة الدراسة الى تمهيد من ثم تناولنا بلاغة حروف المباني وبلاغة حروف المعاني باختيار نماذج من حروف (الجر والعطف والاستفهام) وإبراز معانيهم وأثرهم في تفسير القرآن الكريم، وخلصت الدراسة الى نتائج.

الكلمات المفتاحية: الحرف ، حروف المباني، حروف المعاني

Rhetoric of Arabic letters in the Holy Quran

Dr. Osman Mohammed Osman Elhaj Kona

Abstract:

The study dealt with the significance and rhetoric of the Arabic letters, which are the letters of the buildings and the letters of the meanings. In this context, examples of prepositions, conjunctions, and interrogative letters were chosen, as the letters of the meanings are among the important issues, especially if they are linked to the semantic direction and meaning, explaining the meaning and effect that the letter gave to the verse, and highlighting the issue of alternation. In addition, through this presentation it was possible to recognize the extent of the eloquence of the Holy Qur'an in its arrangement, the choice of its words and letters, and to know the miracle of its arrangement , The meanings

of these letters were linked to the Qur'anic text, so the quotation was from the reality of the verses in explaining their meanings and rulings, as the Holy Qur'an used the letter in a miraculous way, meaning the movement fits the meaning and the letter fits the meaning. God Almighty gives us this matter for rulings and more rulings at the level of movement, at the level of the letter. Then, at the level of the word, the verse, the surah, and the entire Qur'an, it appears that the rulings in this book are clear. In light of that, the nature of the study necessitated a preface. Then we discussed the rhetoric of the letters of the buildings and the rhetoric of the letters of the meanings by choosing examples of the letters (prepositions, conjunctions, and interrogatives) and highlighting their meanings and their impact on the interpretation of the Holy Qur'an, and I concluded. Study results.

key words: Letters, letters of buildings, letters of meanings

مقدمة:

إن أهم ما يميز اللغة العربية كثرة الأساليب التي تتميز بها وتنفرد عن غيرها من اللغات، فالاختلاف في إعراب الكلمة يؤثر في المعنى، والاختلاف في تركيب الجملة يؤثر أيضاً في المعنى لأن تركيب الجملة يعتمد على أجزائها ويتعلق ببعضها البعض، وقد يؤدي الاختلاف في ربط الأجزاء إلى تعدد الآراء في مقصود الجملة، لذلك تبارت أقلام العلماء في تفسير القرآن وفهمه قديماً وحديثاً وتناول ما يكتنزه من أسرار لغوية ومكونات دلالية وما يحمله من مناسبات وارتباطات بين أجزاء تراكيبه، وقد تباينت نتائجهم في بيان وجوه الارتباط بين أجزاء النظم وتأمل المناسبات بينها بحسب أدوات البحث والتنقيب المستعملة، وتفاوتت القرائح والملكات ودرجات العمق في تأمل النظم وطرائق التراكيب العربية التي استخدمها النص، وتحليل هذه التراكيب ووجوه التعالق بينها، ولا شك أن العمق في فهم التراكيب العربية له أثر في فهم انسجام النص ذاته، ومسالك اتساق خطابه، وكيفية انتقاله من حال لآخر، وبيان أسباب استعماله لأسلوب معين في موطن معين، وأن هذا الأسلوب لا يمثل قطعاً دلاليّاً بقدر ما يطرح ثراءً في المعنى يتحقق به انسجام النص على صورة بديعية، ويفضي لتكامله واتساق نظمه؛ وفي هذا الإطار سنحاول أن نعالج هذه القضية، ونبرز أثر التعمق في فهم التراكيب القرآنية في عملية الفهم للخطاب القرآني، وبيان درجة الانسجام الحاصلة في هذا الخطاب، حيث سنبحث في معاني الحرف في القرآن الكريم، الذي يتضمن لمعاني الحروف في القرآن الكريم الذي يخرج الحرف من دلالاته الأصلية إلى دلالاته المجازية، حيث اختص هذا البحث بعض آيات القرآن الكريم التي تحتوي على معاني مختلفة عن معناها الأصلي لزيادة الشواهد القرآنية وتوضيح العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية وبيان مفهوم التناوب للحرف. وقد جعلت هذا البحث في تمهيد ومبحثين، حيث تناولت في التمهيد تعريف الحرف والفرق بين حروف المعاني وحروف المباني، وفي المبحث الأول تناولت حروف المباني وبلاغتها، أما المبحث الثاني تناولت فيه بلاغة حروف المعاني في القرآن الكريم، وخلصت إلى أهم النتائج والتوصيات والمصادر والمراجع. وذلك وفق منهج استقصائي تحليلي.

أسئلة البحث:

- هل اللغة العربية مجموعة من أجزاء يرتبط بعضها ببعض ويعاضد بعضها بعضاً؟
- هل يمكن الإحاطة بكلّ قضايا وزوايا الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم؟
- هل تؤدي المعاني المختلفة في السياق ودلالات حروف المعاني إلى الاختلاف في الحكم في النص القرآني؟
- إلى ماذا يعود التناوب بين هذه الحروف وكثرة هذه المعاني؟
- هل يوجد تناوب بين حروف المعنى في القرآن الكريم؟

التمهيد: تعريف الحرف:

أولاً: الحرف لغة:

قال ابن فارس «(حرف) الحاء الراء والفاء ثلاثة أصول: حُد الشيء، والعُدول، وتقدير الشيء». فأما الحُدّ فحزفُ كل شيء حُدّه، كالسيف وغيره، والأصل الثاني: الانحراف عن الشيء. يقال انحرَف عنه يَنحرف انحرافاً. وحزفُته أنا عنه، أي عدَلْتُ به عنه، والأصل الثالث: المحرف، حديدة يقدر بها الجراحات عند العلاج.⁽¹⁾

ثانياً: الحرف اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فإن علماء اللغة يفرقون بين حروف المباني، وحروف المعاني، فحروف المباني في اصطلاحهم: هي الحروف الهجائية التي تبنى منها الكلمة، وهي حروف المعجم فهي أصوات غير مؤلفة ولا مقترنة ولا دالة على معنى من معاني الأسماء والأفعال والحروف إلا أنها أصل تركيبها⁽²⁾. وليس للحرف منها معنى مستقل في نفسه، ولا في غيره. وتسمى حروف الهجاء⁽³⁾ بمعنى أن تُبنى منه الكلمة مثل «كتب» تم بناء كلمة كتب من حرف «الكاف والتاء والباء» ف «الكاف والتاء والباء» كلها حروف مبنية. والظاهر أن الحرف في هذا الاصطلاح إما سمي حرفاً، لأنه طرف في الكلام، وفضلة والحرف، في اللغة، هو الطرف، ومنه قورهم: حرف الجبل، أي: طرفه، وهو أعلاه المحدد. وقيل لأنه على وجه واحد والحرف في اللغة؛ هو الوجه الواحد⁽⁴⁾. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ (الحج:11).

أما حروف المعاني في الاصطلاح:

هي الأدوات التي تستخدم في اللغة العربية فلا هي كلمة تعطي معنى مستقلاً بذاتها ولا هي كالحرف حرف واحد، أي هي الحروف التي تربط الأسماء بالأفعال والأسماء بالأسماء. وتدل على معنى في غيرها ويطلق عليها حروف الربط.⁽⁵⁾ ونجد أول إشارة إلى حروف المعاني عند أبي الأسود الدؤلي، فقد أشارت الروايات إلى أنه جمع حروف النصب ومن بينها (إن وأن وكأن وليت ولعل) وعرضها على الإمام علي رضي الله عنه فزاد فيها (لكن)، فحد حروف المعاني هو الذي يلتمسه النحويون فهو أن يقال الحرف دل على معنى في غيره نحو (من وإلى وثم)، وشرحه أن «من» تدخل في الكلام للتبعية فهي تدل على تبعية غيرها لا على تبعية نفسها.⁽⁶⁾

قال المرادي « فإن قيل: ما معنى قولهم الحرف يدل على معنى في غيره فالجواب: معنى ذلك أن دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقفة على ذكر متعلّقه، بخلاف الاسم والفعل. فإن دلالة كل منهما، على

معناه الإفرادي، غير متوقفة على ذكر متعلق؛ ألا ترى أنك إذا قلت: الغلام، فهم منه التعريف. ولو قلت: (أل) مفردة لم يفهم منه معنى. فإذا قرُن بالاسم أفاد التعريف. وكذلك باء الجر فإنها لا تدل على الإلصاق، حتى تضاف إلى الاسم الذي بعدها، لأنه يتحصل منها مفردة. وكذلك القول في سائر الحروف.⁽⁷⁾ كحروف الجر، والاستفهام، والشرط، وغيره. وتقييدها بالمعاني ليُخَرَّج حروف المباني التي تبنى منها الكلمة، وهي حروف الهجاء فالهمزة في كلمة (أحمد) من حروف المباني؛ لأنها من بنية الكلمة، بينما الهمزة في (أذهب زيد؟) فهي حرف دال على معنى الاستفهام فتكون من حروف المعاني. فالألفاظ مغلقة على معانيها، وأغراضها كامنة فيها، إنما يفتحها النظم ويستخرجها، فانظر فيه وفي صياغته وسياقه ومدلوله، وترسم آفاقه لفهم معانيها وتحديد أبعادها⁽⁸⁾. ذكر بعض النحويين في عدة حروف المعاني بأنها ثلاثة وسبعون وزاد غيرهم على ذلك حروفاً آخر مختلفاً في حرفية أكثرها، وذكر بعضهم نيفاً وتسعين حرفاً ومنهم من عدّها المائة. وهي منحصرة في خمسة أقسام: أحادي، ثنائي، ثلاثي، رباعي وخماسي⁽⁹⁾.

الفرق بين حروف المعاني وحروف المباني: يظهر الفرق بينهما فيما يلي:

حروف المباني هي حروف التهجي، ومنه تبنى الكلمة، فهي أبعاد الكلمة، أما حروف المعاني فهي من أنواع الكلم.

حروف المباني لا تزيد على حرف واحد. بينما حروف المعاني منها ما هو على حرف واحد كهمزة الاستفهام ومنه ما هو على حرفين ك(إن) الشرطية، ومنها ما هو على ثلاثة أحرف، كحرف الجر (إلى). حروف المعاني يتبين معناها بغيرها، ولذلك يقال حرف جاء لمعنى، بينما حروف المباني ليست كذلك. عدد حروف المباني ثمانية وعشرون حرفاً، أما حروف المعاني فهي نحو ثلاثة وسبعون حرفاً، وزاد غيره على ذلك حروفاً آخر، مختلفاً في حرفية أكثرها، وذكر بعضهم نيفاً وتسعين حرفاً⁽¹⁰⁾.

إذن الحرف في اللغة العربية نوعان حرف مبني وحرف معنى. فالأول بُنِيَ منه الكلمة، والثاني هي الأدوات التي تستخدم في اللغة العربية فلا هي كلمة تعطي معنى مستقلاً بذاتها، ولا هي كالحرف حرف واحد، وذلك مثل: حروف الجر (على، في، حتى)، هي ليست كلمة لأنها لا تعطي معنى مستقلاً بذاتها ولكنها تحتاج إلى كلمة أخرى حتى نفهم المعنى. إذن هي مرحلة بين الحرف المفرد وبين الكلمة التي تعطي معنى مستقلاً. ونجد عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز قال بنظرية النظم وهو نظم لا يتوقف عند الكلمة والجملته لكنه جاء بشواهد على الحركة وجاء بشواهد على الحرف، فحينما نتحدث عن روائع البيان القرآني التي تكون في مستوى الحركة، الفتحة والكسرة والضمة. فهناك كلمات تقوم الحركة فيها بتحديد المعنى على وجوه ثلاثة مثل ذلك «جَنَّةٌ وَجَنَّةٌ وَجَنَّةٌ»⁽¹¹⁾. حرف الجيم الأول هو الذي تغيرت حركته والحروف لم تتغير ف«الجَنَّة» هي البستان المعروف في دنيا الناس أو «جنة الخلد» يوم القيامة جنة عرضها السموات والأرض، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة: 82). و«جنة» قال الله عز وجل: «الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)» (سورة الناس) أي عالم «الجن» تغيرت الفتحة إلى الكسرة فتغير المعنى من «الجَنَّة» بمعنى البستان إلى «الجنة» بمعنى الجن، يقول ابن عاشور: «في قوله (من الجِنَّةِ وَالنَّاسِ) بيانية بنيت (الذي يوسوس في صدور الناس) بأنه جنس ينحل لاعتبار إرادة حقيقته ومجازه إلى صنفين: صنف من الجِنَّةِ وهو أصله، وصنف من الناس

وما هو تبع وولي للصنف الأول...»⁽¹²⁾، ثم يقول النبي صلى الله عليه وسلم «الصيام جُنة» يعني «وقاية» فجاءت الضمة لتعطي هذا المعنى الثالث، قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون:2).

إذن القرآن الكريم يستخدم الحركة على نحو معجز ويستخدم الحرف على نحو معجز يعني الحركة تناسب المعنى والحرف يناسب المعنى، الله سبحانه وتعالى حين يعطينا هذا الأمر للإحكام ومزيد الإحكام على مستوى الحركة، على مستوى الحرف ثم على مستوى الكلمة والآية والسورة والقرآن كله يظهر أن الإحكام في هذا الكتاب حين قال سبحانه وتعالى ﴿الرَّكَّابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1) كان في كل شيء يتصل بهذا الكتاب في حركاته وفي حروفه، في كلماته، في آياته، في معانيه، في قيمه التي دعا إليها الإحكام في كل شيء في هذا الكتاب فالقرآن وهو المعجزة العقلية الباقية وهو كلام الله.

المبحث الثاني: بلاغة حروف المباني:

تناول علماء اللغة العربية مجموعة الحروف العربية بترتيب على وجوه مختلفة، ويعد الخليل بن أحمد أول من وضع ترتيباً خاصاً للحروف العربية فرتبها بترتيب مخارجها من الجوف وانتهى إلى الشفتين، حيث كان ذلك أساساً معاجم اللغة التي وضعت على مخارج الحروف وفي مقدمتها معجم العين، ثم رتب الحروف على وجوه أخرى من بينها الترتيب الهجائي المعروف والذي يعتمد على ضم كل حرف إلى ما يشبهه في الرسم، وهناك الترتيب البجدي الذي يشبه الأبجديات المعروفة في اللغات الشرقية القديمة⁽¹³⁾، وحروف المباني نوعان الصوائت لأنها هي التي تجعل الحرف يصوت أي يصدر له صوتاً وهي التي تلحق بها حروف المد الفتحة والضمة والكسرة وألف المد وواو المد وياء المد. وهناك الصوامت وهي أن يبقى الحرف صامتاً إلى أن تأتيه حركة فتجعل هذا الحرف يصدر للحرف صوت ولذلك سميت الحركات صوائت لأنها هي التي تجعل الحرف يصوت أي يصدر له صوت وسميت الحروف صوامت لأنها صامتة بدون الحركة. فمثلاً: (مخرج الفاء) بدون حركة لا يصدر له صوت (صوامت) فإذا وضعنا للحرف حركة مثل الفتحة أو الكسرة أو الضمة يصبح له صوت تسمى صوائت، فلكل حرف صوت، ولكل صوت معنى، ولكل معنى أثر في النفس؛ مراعاة لمقتضى الحال، ففي قوله عز وجل: ﴿فَكُبْكَبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (الشعراء: ٩٤)، تكرر حرف الكاف والباء؛ ليوحي بالسقوط المتكرر؛ لتتابعهم وكثرتهم.. وجاء في تفسير الطبري، يقول: فرمي ببعضهم في الجحيم على بعض، وطرح بعضهم على بعض منكبين على وجوههم. وأصل كبكبوا: كببوا، ولكن الكاف كررت كما قيل: ﴿بَرِيحٍ صَرَصٍ﴾.

أما الصوائت التي هي حروف المد ويسمونها في علم اللغة الحديث الحركات الطويلة (ألف المد وياء المد وواو المد)، فوجه الاستخدام المعجز لها في القرآن الكريم مثلاً في قوله الله تعالى ﴿وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رَرْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (سورة ق 11-9)، فقال: ﴿وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٍ﴾، أي: عاليات، ألف المد مناسبة للمعنى، النخلة فيها استطالة وألف المد فيها استطالة (باسقات). (لها طلع نضيد) نضيد تتناسب مع الطلع الذي يكون فوق بعضه البعض، وعندما نأتي إلى حرف الضاد المفخمة وحين تنطقه في قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ هذه مناسبة لامتلاء الطلع فهي مناسبة بين الحرف وبين المعنى في الكلمة التي هو جزء منها، فالضاد مناسبة لمعنى الامتلاء وصفة

التضخيم في الضاد مناسبة لمعنى الامتلاء في الطلع الذي يعبر عنه القرآن الكريم. فنضيد تتناسب مع الطلع الذي يكون فوق بعضه البعض، وكذلك ألف المد مناسبة للمعنى، النخلة فيها استطالة وألف المد فيها استطالة (باسقات). وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (القيامة:33)، الألف اللينة التي ترسم ياء مناسبة للمبالغة في التكبر والمبالغة في التعالي فتوظيفها في معنى كهذا إنما هو على نحو معجز لانراه بهذا الانتظام وهذا التناسق والإحكام إلا في القرآن الكريم.

فحروف المباني الصوامت (كل الحروف ما عدا حروف المد) فيها بيان عظيم ينبغي أن نقف عنده بالفهم والوعي حتى يكون منك الإجلال والتعظيم، فمثلا حرف الهمزة صوت شديد انفجاري وصفتها صوت شديد انفجاري وحين يعبر القرآن عنه في آية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرُثُهُمْ أَرْثًا﴾ (مريم: 83)، فقوله تعالى (...تَوْرُثُهُمْ أَرْثًا) مناسب في سياق الشياطين أي تخريبهم إغراء، في مقابل أنك ترى في سياق آخر الله عز وجل يقول لمريم عليها السلام ﴿وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَةُ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا﴾ (مريم: 83)، لم يقل أَرْثًا لأن الهاء حرف همس وحرف الهمس بصفته اللطيفة هذه مناسب لمعنى الحنان والترفق بالصديقة مريم في موقفها الذي كانت فيه فجاء القرآن الكريم بحرف الهمس الهاء في هذا السياق ولما كان السياق سياق الشدة والعنف والاضطراب مع الشياطين جاء بالهمزة ولما كان السياق سياق الحنان واللف والترفق جاء بالهاء (وهزي إليك). وحين يريد القرآن الكريم أن يبين ما كان يفعله فرعون بالنساء وبالأطفال ويبين قسوته وكثرة ما كان يرتكب من هذا الفعل الشنيع، يقول الله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:4) لم يقل يذبح وإنما جاء بالحرف المشدد (يذبح) للدلالة على الكثرة والعنف والقسوة في حدث الذبح الذي يحدث من فرعون، وهذا التوظيف العظيم في القرآن الكريم يدل على هذا الاستعمال المتميز المعجز، فتاء الافتعال تأتي للتعبير عن المعاني التي فيها قوة فيها حماس فيها شدة، فالقرآن الكريم يصور لنا حال أهل النار واستغاثاتهم فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ وَأَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: 37)، ارتفاع الصوت بالصراخ لم يقل القرآن يصرخون فيها لو أردنا أن نزيد الصراخ لأضفنا تاء الافتعال يصترخون فيها لكن القرآن يحول التاء المرققة إلى طاء مفخمة ليعبر عن هذه الشدة، ناسب بين تفخيم الطاء وتحويل التاء المرققة للدلالة على المبالغة في الصراخ وشدة العذاب الذي يناسبه الطاء المفخمة وليس التاء المرققة.

الروعة في استخدام الحرف في القرآن الكريم ومناسبته للمعنى ولا يمكن أن تستعيز بحرف عن حرف ليعبر عن المعنى، ومن ذلك قول ربنا سبحانه وتعالى حين يرشد الأمة في شخص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: 132) فأمر الأهل بالصلاة يحتاج إلى سعة الصدر ويحتاج إلى تكرار وتلطف ليس الأمر هيئاً وليس الأمر تعليمات فقط لكن المسألة تحتاج إلى مزيد من المحاولة ومزيد من الصبر والتحمل. يسوق القرآن هذا المعنى بقوله «اصطبر» من الصبر ولم يقل واصبر عليها. اصطبر بالطاء، اصبر بحسب قواعد اللغة العربية والأحكام الصرفية للكلمة أن صيغة الافتعال حين يراد تعظيم المعنى تأتي بالتاء تاء الافتعال و«اصتبر» عليها لكن التاء غير مناسبة للمعنى المراد عن قوة التحمل وسعة الصبر ومزيد الحلم وأنت تدعو إلى الصلاة وهذه تحتاج إلى حلم واسع

وصبر واسع جداً فلا يكفي أن يقال و«اصبر» عليها أو و«استبر» عليها على حسب قواعد الصرف المألوفة بزيادة تاء الافتعال ولكنه يحول التاء المرفقة إلى الطاء المفخمة لتعبر عن قوة التحمل وسعة الصدر وقوة الحلم.

أما سيدنا موسى عليه السلام عندما سار بأهله وآنس - من الأنس الإنسان لما يكون في وحشة وغريباً ويمشي في طريق لا يرى أحداً من الناس وفي برد وفي معاناة- فالله سبحانه وتعالى يعبر في القرآن ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل: 7)، تصطلون من صلي ما قال تصطلون بتاء الافتعال لأن التاء تاء الافتعال لا تعبر وليست كافية للدلالة على شدة الحاجة إلى النار لما أصابهم من شدة البرد فالاصطلاء الدنو من النار لتدفئة البدن عند شدة الشعور بالبرد، الذي يرتعش ويشعر ببرد شديد يقترب إلى النار أكبر درجة ممكنة حتى يستدفئ بها. القرآن لم يقل أن موسى عليه السلام وأهله كانوا يشعرون ببرد شديد وإنما جاء بكلمة تعبر عن كل هذا وجاء بحرف واحد يسوق كل هذه المعاني وهو تحويل تاء الافتعال إلى الطاء المفخمة على نحو متميز معجز في القرآن فقال تصطلون ليعبر عن شدة الحاجة إلى النار لما أصابهم من شدة البرد. انظر القرآن باستخدامه للحرف ومناسبة هذا الاستخدام للمعنى والحرف جزء من بناء هذه الكلمة يريك وجه الإعجاز ويقف بك على روعة البيان والجمال القرآني.

حين يقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿مُتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (لقمان: 24)، نضطرهم الضاد مفخمة وتأتي من الضرر وشدة الضرورة والضرورة منها الاضطرار لكنه لم يذكر في الآية ضرورة أو غيرها وإنما حول تاء الافتعال إلى طاء مفخمة هنا ليناسب قوة المعنى المراد وهو قوة الاضطرار ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أنهم ستحيط بهم الأسباب لأنه كل من أعرض عن الله عز وجل يفتح له في باب العذاب ويمد له في طغيانه حتى يستحق العذاب عن جدارة فربنا يعبر عن ذلك (نَضْطَرُّهُمْ) بعد أن حول التاء المرفقة إلى طاء مفخمة لتناسب قوة معنى الاضطرار.

في سورة الصافات قال ﴿قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُّطَّلَعُونَ﴾ (الصافات: 54)، من طلع هي الإشراف على الشيء، اطلعت على هذه الأسباب يعني أشرفت عليها لكن الاطلاع يكون من علو وإشراف، والقرآن هنا في صيغة مطلعون حول التاء المرفقة إلى طاء مفخمة لتتبع المعنى لمعنى عظيم وهو: هل تحبون أن تطلعوا لتعلموا منزلتكم في النار؟! يريد أن يفخم ويعظم العذاب فيقول له أنت ستطلع على شيء خطير وعذاب أليم فحول التاء المرفقة إلى طاء مفخمة. وقوله تعالى ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97)﴾ (الكهف: 96- 97)، لقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال: فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا، أي: فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه، وما استطاعوا- أيضاً- أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومثاقنته وثخانتها، قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، فصعودهم على السد أقل صعوبة من نقبه، ولذلك جاء في الأول بحذف التاء ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وجاء في الثاني بالتاء ﴿وما استطاعوا له نقبا﴾، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله ⁽¹⁴⁾ "تَسَطَّحَ مضارع

(اسطاع) بمعنى (استطاع). حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء، والمخالفة بينه وبين قوله: (سَأْنُبُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)، للتفنن تجنباً لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالاً، وجيء بالثانية بالفعل المخفف لأن التخفيف أولى به، لأنه إذا كرر (تَسْتَطِعْ) يحصل من تكريره ثقل.

”(اسْطَاعُوا) تخفيف (اسْتَطَاعُوا)، والجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. وابتدئ بالأخف منهما لأنه وليه الهمز وهو حرف ثقیل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف، ومقتضى الظاهر أن يُبتدأ بفعل (اسْتَطَاعُوا) ويثنى بفعل (اسْطَاعُوا) لأنه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله أنفأ: ﴿سَأْنُبُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ثم قوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا: إثارة فعل ذي زيادة في المبنى، بموقع فيه زيادة المعنى لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى» انتهى. قال ابن كثير رحمه الله، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاهما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم”..⁽¹⁵⁾

ومن اللطائف: أن القاسمي رحمه الله في تفسيره، بعد أن ذكر بعض ما قيل في ذلك، ختم البحث بقوله: «وما ألطف قول الشهاب في مثله: هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرق»..⁽¹⁶⁾ وقد جاء مثل ذلك أيضاً في السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿سَأْنُبُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفي آخر القصة يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، يقال: (استطاعوا) و(اسطاعوا) بالتاء وحذفها، وهما بمعنى واحد، وذكر بعض المفسرين أن الفائدة من هذا التغير هي فائدة لفظية، وأن هذا هو مقتضى الفصاحة، حتى لا تكرر الكلمة بلفظها فإن ذلك معيب عند الفصحاء. وذهب آخرون إلى أن الفائدة من هذا: فائدة معنوية، وهي أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فزيادة حرف (التاء) في إحدى الكلمتين تدل على أن الاستطاعة فيها أشد من الكلمة التي حذفت منها التاء، فعند المقابلة بين أمرين، يقال في الأشد منهما: (استطاع) بالتاء، ويقال في الأخف: (اسطاع) بحذف التاء. وهذا هو المناسب للموضعين في السورة.

حيث راعى القرآن المعجز هذا الثقل النفسي الذي عاشه موسى عليه السلام، فأثبت التاء في فعل (تستطع)، ليتناسب ثقل الهمم النفسي عند موسى عليه السلام مع الثقل البنائي في حروف الفعل. وحذف التاء في (تسطع) في المرة الثانية أدى إلى تخفيف الفعل، وهو يناسب التخفيف في مشاعر موسى عليه السلام، وزوال الهمم والثقل الذي يفكر فيه.

ففي قصة موسى عليه السلام مع الخضر، ﴿سَأْنُبُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ فالاستطاعة هنا أشد لأن موسى عليه السلام لم يكن علم سبب فعل الخضر ما فعل. فلما أخبره بذلك قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، لأن الأمر هنا صار أخف. وقد راعى القرآن المعجز هذا الثقل النفسي الذي عاشه موسى عليه السلام، فأثبت التاء في فعل (تستطع)، ليتناسب ثقل الهمم النفسي عند موسى عليه السلام مع الثقل البنائي في حروف الفعل. وحذف التاء في (تسطع) في المرة الثانية أدى إلى تخفيف الفعل، وهو يناسب التخفيف في مشاعر موسى عليه السلام، وزوال الهمم والثقل الذي يفكر فيه.

المبحث الثالث: بلاغة حروف المعاني:

تناولنا في المبحث الأول حروف المباني وتحدث في هذا المبحث عن الحرف والمعنى في القرآن الكريم وحروف معاني كأدوات النصب وحروف الجر (من، في، على، وغيرها) وهي حرف معنى لأن لها معنى لكن معنى لا يستقل بذاته وإنما يحتاج لكلمة يُسند إليها حتى يظهر، وهي ليست حرفاً على الحقيقة لأنها أكثر من حرف فسميت بحروف المعاني، حيث تنفرد اللغة العربية بخصيصة رائعة ألا وهي التناوب بين حروف المعاني على الرغم من الإشكالات التي ذكرها النحاة واللغويون في هذا الباب، حيث يعد التناوب من موضوعات الاختلاف بين النحاة إذ إنه أثار جدلاً لانهائياً بينهم فيما إذا كان قياساً أم سماعياً. وقد تخلص هذا الاختلاف في مذهبين: مذهب البصريين الذين يزعمون أن التناوب ليس قياساً لأن أحرف الجر لا تنوب بعضها عن بعض بقياس، وأنه ليس لحرف الجر إلا معنى واحد حقيقي يؤديه على سبيل الحقيقة لا المجاز⁽¹⁷⁾، ومذهب الكوفيين على عكس ما ذهب إليه البصريون يزعم الكوفيون أن التناوب قياسي بحجة أن الحرف بصفته كلمة كسائر الكلمات الاسمية والفعلية يؤدي عدة معانٍ حقيقية لغوية كانت أم عرفية⁽¹⁸⁾، وتعد حروف المعاني النوع الثاني من حروف اللغة العربية فكيف وردت في القرآن على نحو معجز.

استخدام القرآن المعجز لحروف الجر:

الجر لغة هو الجذب والشد والاقتياد، وهي مأخوذة من المادة اللغوية (جَرَ) ⁽¹⁹⁾. واصطلاحاً نقل أو وصل ما قبل الجار إلى ما بعده، من فعل أو شبهه، و بحرف الجر تصل الاسم بالاسم والفعل بالاسم، و لا يدخل حرف الجر إلا على الأسماء⁽²⁰⁾. حيث تمثل حروف الجر جانباً من جوانب الدرس النحوي، وقد حظيت باهتمام الدارسين قدماء ومحدثين وهي من الأدوات المختصة بالأسماء عند العلماء واسماها الكوفيون حروف الصفات أو (الخفض)، واختلف في عددها فأوصلها العلماء إلى أكثر من عشرين حرفاً، وقد تؤدي دلالة الحرف في النص القرآني إلى اختلاف في الحكم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104)، فكلمة (منكم) فيها حرف جر (من) وقد احتملت دلالتين (التبيين، التبعض) فإذا ما أردنا أن نرجح أحد المعنيين فإننا نحتاج إلى أدلة للترجيح⁽²¹⁾، في سورة المؤمنون لما قرأت السيدة عائشة رضي الله عنها قول الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: 60) فتبادر إلى ذهنها رضي الله عنها أن المقصود هو الرجل يفعل المعاصي ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله تعالى عليها لكنها لم تعتمد هذا الفهم حتى رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسألته فقال لها لا يا عائشة إنما هو الرجل يصوم ويصلي ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه هذه الصالحات لعله يكون فيها نقص إخلاص أو رياء، هذا من التواضع في العبادة بين يدي الله ثم قال لها يا عائشة ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون: 61) الفعل يسارعون ورد في القرآن متعدياً بحرف الجر (إلى) (وسارعوا إلى مغفرة) أما في الآية السابقة جاءت ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ هذا توظيف معجز لحرف الجر مع الفعل لما كان الكلام على أهل الذنوب والعصيان وأنهم يطلبون مغفرة الله عز وجل قال (وسارعوا إلى)، فحرف الجر (إلى) يفيد انتهاء الغاية، فبينك وبين المغفرة مسافة وحتى تقطع هذه المسافة تحتاج إلى استغفار وذكر وطاعة حتى يتقبل الله منك ويغفر لك هذه الذنوب فجاء حرف الجر (إلى) الذي يفيد انتهاء الغاية ويفيد

أن بين هؤلاء الذين يسارعون إلى المغفرة وبين المغفرة مسافة، أما حين تكلم عن أهل الخيرات الذين يسارعون في الخير وتواضعهم لله عز وجل ألا يتقبل منهم طاعاتهم لأنه قد يكون فيها رياء أو نقص إخلاص من التواضع بين يدي الله عز وجل إجلالاً له قال تعالى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (في) تفيد الظرفية أي هم داخل الخير معناه أنهم يزدادون في هذه الخيرات، يسارعون في الخيرات ويزدادون فيها. لما أراد القرآن أن يعبر أن بين الذين يطلبون المغفرة من أهل الذنوب والمغفرة مسافة جاء بحرف الجر (إلى) الذي يفيد انتهاء الغاية التي تفيد هذه المسافة الفاصلة بينهم وبين المغفرة وتحتاج إلى ذكر واستغفار حتى يحصلوا عليها وحين أراد أن يعبر عن اجتهد الصالحين الأوابين الذين يرابطون في الخير ويسعون فيه جاء بالحرف الذي يفيد الظرفية ويفيد المعية الداخلية جاء بحرف الجر (في). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ (النساء: 2) أنت تقول أكلت الشيء مع الشيء، الأكل مع وليس إلى، فَلِمَ عَدَلَ عن حرف الجر (مع) إلى حرف الجر (إلى)؟ لأن الآية تتحدث عن أموال اليتامى و(إلى) تفيد انتهاء الغاية، أي هناك مسافة فلما أراد أن يعبر عن فصل مال اليتامى وأن يكون لهم ذمة مالية مستقلة عبر بحرف الجر (إلى).

قال تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: 15)، ففي قوله تعالى ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ على غير عادة العرب إذ الأصل في العرف اللغوي أن تعالى (أصلح لي ذريتي) دون استعمال (في) التي للظرفية وهي الأصل في معناها ولا يثبت البصريون غيرها⁽²²⁾، وذلك كما جاء في قوله تعالى في حق زكريا عليه السلام ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: 90)، وقوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71)) (الأحزاب: 70-71)، إذن ما الحكمة من إدخال حرف (في) هنا واستعمالها في هذا السياق؟ وأي قيمة مضافة لها في الآية الكريمة؟ إن حرف (في) أدى رسالة عميقة وأشار إلى بعد بلاغي جزل، فإذا قال سبحانه وتعالى (أصلح لي ذريتي) لكان المقصود صلاح الذرية فحسب دون إضافة معنى آخر، لكن مجيء حرف (في) أضاف بعداً كبيراً وضخماً فإن القصد: أن يجعل الله سبحانه وتعالى ذريته ونسله بمثابة قالب ووعاء وبيئة للصلاح والتقوى ناهيك عن كونهم صالحين في انفسهم، حيث يطلب من الله أن يكون نسله التربة الخصبة والمكان الحاوي والمستقر لصلاح الناس في بيئتهم ومجتمعهم وأن يكونوا ريادة الصلاح وعنوانها وأن يكونوا راسخين في الصلاح متمكنين منه بحيث يستطيعوا نقله للآخرين ودعوتهم إليه والتأثير فيهم، فإذا قلت مامعنى (في ذريتي) معناه أن يجعل ذريته موقعا للصلاح وفطنة له كأنه قال هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم.

قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: 107) يعني: الجنة، ماكنون فيها أبدا لا يبعثون عنها حولا، فَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ بركة إيمانهم وعملهم الصالح فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ أي ففي جنته. والتعبير عن الجنة بالرحمة من باب التعبير بالحال عن المحل فتكون الظرفية حقيقة. وإذا أريد برحمة الله ثوابه وجزاؤه تكون الظرفية مجازية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (طه: 71)، قال فرعون آمَنْتُمْ له قبل أن آذن لكم إنكار منه عليهم؛ أي تعديتُمْ وفعلتُمْ ما لم أمركم به. إنه لكبيركم الذي علمكم السحر أي رئيسكم في التعليم، وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبهه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته. فلأقطعن: أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين قطع ذلك، وذلك أن يقطع يميني اليمين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليمين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعاً من خلاف، وكان فيما ذكر أول من فعل ذلك فرعون، ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ يقول: ولأصلبنكم على جذوع النخل، كما قال الشاعر سويد بن أبي كاهل الشكري:

هُم صَلَبُوا الْعَبْدِي فِي جَذَعِ نَخْلَةٍ فَلَا عَطَسَتْ شَيْئَانِ إِلَّا بِأَجْدَعَا

واستشهد بقوله: صلبوا العبدى في جذع نخلة أي على جذع نخلة، كقول القرآن: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾. وإنما ذلك على الاستعارة التبعية في الحرف (في) بتشبيه الاستعلاء بالظرفية، بجامع التمكن في كل منهما. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4) أي: وإنك - أيها الرسول الكريم - لعلى دين عظيم، وعلى خلق كريم، وعلى سلوك قويم، في كل ما تأتبه وما تتركه من أقوال وأفعال، والتعبير بلفظ "على" يشعر بتمكّنه صلى الله عليه وسلم ورسوخه في كل خلق كريم. وهذا أبلغ رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون، لأن الجنون سفة لا يحسن معه التصرف. أما الخلق العظيم، فهو أرقى منازل الكمال، في عظماء الرجال. وهو ما اشتمل عليه القرآن من مكارم الأخلاق؛ فقد كان امتثال القرآن سجية له ياتمر بأمره، وينتهي عما ينهى عنه.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ -أي: عالياً به، مستعليّاً بخلقك الذي من الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرت به أم المؤمنين، [عائشة -رضي الله عنها] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الآية، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. تشابه بابدال حرف مكان حرف آخر ومن أمثلته قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: 35)، بالواو. وفي سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: 19)، بالفاء، وتفسير تبديل الواو بالفاء: أن مجئ الواو في سورة البقرة لأن السكون فيها يعنى الإقامة، ومادام مقيماً فلا يحتاج إلى تأخير الأكل، والسكون في الأعراف من اتخاذ المواضع مسكناً فالأكل يحتاج إلى تأخير وتراخي حتى يستقروا في الجنة فناسب إبدال الواو فاء لما تفيده الفاء من التراخي الزمنى.⁽²³⁾ وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (16) ثُمَّ لَا تَجِدُ مِنْهُمْ مِثْرًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (17) قال الزمخشري محاولاً تعليل المغايرة في الحرفين: فإن قلت: كيف قيل: (من بين أيديهم ومن خلفهم) بحرف الابتداء، (وعن إيمانهم وعن شمائلهم) بحرف المجازة؟ قلت: المفعول فيه عدى إليه الفعل تعديته على المفعول به، فكما اختلفت حروف التعديّة في ذلك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش

عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم سيقولون: جلسة عن يمينه، وعلى سمينه، وعن شماله، وعلى شماله، قلنا: يعنى معنى على يمينه أنه من جهة اليمين تمكن المستعلى من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً هن صاحب اليمين منحرفاً عنه، غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل المتجافي وغيره⁽²⁴⁾.

استخدام القرآن المعجز لحروف العطف:

حرف العطف (ثم) يشرك في الحكم، ويفيد الترتيب مهلة، فإذا قلت: قام زيد ثم عمر، آذنت الثاني بعد الأول مهلة، وذهب بعض النحاة أن (ثم) تأتي بمنزلة (الواو) لالترتيب ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ قَاتِلُوا نَصْرُوقُ﴾ (سورة الزمر 6) ومعلوم أن هذا الجعل كان قبل خلقنا. وزعم بعضهم أنها تقع موقع الفاء، كقول الشاعر:

كهز الرُّدَيْنِي بين الأكف *** جرى في الأنابيب ثم اضطرب⁽²⁵⁾

أي : فاضطرب.

ويمكن أن نلمح جمال التعبير بالواو في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۚ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (112) (التوبة، الآية 112) حيث جاءت الواو بين الصفتين الأخيرتين فقط دون بقية الصفات الأخرى من أول الآية لما بين الصفتين الأخيرتين من التقابل والتضاد، فمقام الأمر بالمعروف يختلف عن مقام النهي عن المنكر، أضاف إلى ذلك أيضاً المغايرة بين طبيعة الصفات الأولى كلها وبين الصفتين الأخيرتين، فالصفات الأولى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ كلها تمثل علاقة العبد بربه مباشرة وليس لها تعلق بالآخر، أما الصفتان الأخيرتان وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما تعلق بالآخر، فلا بد من طرف آخر يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن أجل ذلك جاءت الواو مع الصفتين الأخيرتين فقط دون الصفات الأخرى من أول الآية في حين ان النحاة يطلقون عليها (واو الثمانية)⁽²⁶⁾.

استخدام القرآن المعجز لأدوات الاستفهام:

من حروف الاستفهام (هل) وهي تدخل على الأسماء والأفعال، لطلب التصديق الموجب لاغير أي الحكم بالثبوت أو الانتفاء⁽²⁷⁾. وقال النحاة إن (هل) تكون فيه معنى (قد) أو (إن) لإثبات وجود شيء أو تقرير وجوده نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ كَافِرِينَ أَنْ يَخْلُقَ لَكُمْ زَوْجًا مِّمَّنْ أَنْتُمْ تُكَفِّرُونَ﴾ (البقرة: 246)، الاستفهام للتقرير، وتثبت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه، أي أنه يتوقع جبنهم عن القتال، فأدخل هل مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون⁽²⁸⁾، أما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (الغاشية: 1)، قيل: (هل) بمعنى (قد)، أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة، لأنها تغشي الناس والخلائق بأهوالها. وقيل: (هل) على معناها الاستفهامي، المتضمن للتعجب مما يأتي في خبره، والتشويق إلى استماعه⁽²⁹⁾.

النتائج:

إن اللغة العربية كالجسد الحي، بل هي مجموعة من أجزاء يرتبط بعضها ببعض ويعاضد بعضها بعضاً وخير من يمثل اللغة العربية النص القرآني المقدس.

تعدُّ الإحاطة هنا بكلِّ قضايا وزوايا الأساليب التي استخدمها القرآن. الحروف نوعان حروف مباني وحروف معاني، وحروف المعاني هي التي بحث في معانيها النحاة والبلغاء.

حروف المباني تمثل باباً كبيراً وواسعاً في الدراسات النحوية، تؤدي معاني مختلفة في السياق ودلالات حروف المعاني في النص القرآني تؤدي إلى الاختلاف في الحكم، والحكم يحدده مقتضيات السياق أو ما أطلق عليه تبادل الوظائف الدلالية.

إن كثرة هذه المعاني والتناوب بين هذه الحروف عائد إلى الاحتياجات الاجتماعية والشخصية التي تقوم اللغة على خدمتها.

إن تناوب الحروف قد يكون في غاية التعقيد خاصة إذا كان معنى الحرف الطالع ومعنى نظيره الكامن غير متقاربين ومن ثم تنبع من ذلك صعوبة الفهم لمن لا يدرك ما وراء تبادل الحرفين من تناوب المعنى.

إن القول بعدم وجود تناوب بين حروف المعاني، في القرآن الكريم لا يمكن التسليم به لورود ذلك في كلام العرب والقرآن إنما جاء إعجازاً وعلى سنن وقواعد كلام العرب.

الخاتمة:

تناولت الدراسة دلالة وبلاغة الحروف العربية وهي حروف المباني وحروف المعاني وفي هذا الإطار تم اختيار نماذج من حروف الجر وحروف العطف والاستفهام، وبيان المعنى والأثر الذي أعطاه الحرف للآية، وإبراز قضية التناوب والزيادة، ومن خلال هذا العرض أمكن التعرف على مدي بلاغة القرآن الكريم في نسقه واختيار الفاظه وحروفه، ومعرفة إعجاز نظمه.

حيث استخدم القرآن الكريم الحرف على نحو معجز يعني الحركة تناسب المعنى والحرف يناسب المعنى، الله سبحانه وتعالى حين يعطينا هذا الأمر للإحكام ومزيد الإحكام على مستوى الحركة، على مستوى الحرف ثم على مستوى الكلمة والآية والسورة والقرآن كله يظهر أن الإحكام في هذا الكتاب، على ضوء ذلك تناولنا أثر حروف المباني وحروف المعاني باختبار نماذج من حروف (الجر والعطف والاستفهام) وإبراز معانيهم وأثرهم في تفسير القرآن الكريم، وخلصت الدراسة إلى نتائج من بينها: إن اللغة العربية كالجسد الحي يرتبط بعضها ببعض ويعاضد بعضها بعضاً وخير من يمثل اللغة العربية النص القرآني المقدس. تعدُّ الإحاطة هنا بكلِّ قضايا وزوايا الأساليب التي استخدمها القرآن. الحروف نوعان حروف مباني وحروف معاني، وحروف المعاني هي التي بحث في معانيها النحاة والبلغاء. حيث تمثل حروف المباني باباً كبيراً وواسعاً في الدراسات النحوية، تؤدي معاني مختلفة في السياق ودلالات حروف المعاني في النص القرآني تؤدي إلى الاختلاف في الحكم، والحكم يحدده مقتضيات السياق أو ما أطلق عليه تبادل الوظائف الدلالية. ونختم بالقول إن كثرة هذه المعاني والتناوب بين هذه الحروف عائد إلى الاحتياجات الاجتماعية والشخصية التي تقوم اللغة على خدمتها. خاصة إذا كان معنى الحرف الطالع ومعنى نظيره الكامن غير متقاربين ومن ثم تنبع من ذلك صعوبة الفهم لمن لا يدرك ما وراء تبادل الحرفين من تناوب المعنى.

الهوامش:

- (1) ابن فارس، (١٩٧٩م). معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام هارون، ج٢، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، ص٤٢.
- (2) السيوطي، جلال الدين، (١٩٨٧م). الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق غازي مختار طليمات، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ج٢، ص٢٥.
- (3) المعجم الوسيط، (٢٠٠٤)، جمع اللغة العربية، ط٤م، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ص١٦٧ وانظر كتاب الكليات - لأبي البقاء. (1 / 1657)
- (4) المرادي، الحسن بن قاسم (١٩٩٢م). الجنى الداني في حروف المعاني. تحقيق: فخرالدين قباوة ومحمد نديم فاضل. (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٢٣-٢٥)
- (5) المرجع السابق، ص٢٠-٢٢
- (6) السيوطي، جلال الدين، (١٩٨٧م). الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق غازي مختار طليمات، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ج٢، ص١٦
- (7) المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، ص٢٥-٢٧.
- (8) فاضل، محمد نديم (١٤٣٦هـ). التضمن النحوي في القرآن الكريم، ط١، مج١، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ص٨.
- (9) المرادي. الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، ص٢٨-٢٩
- (10) المرادي. الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، ص٢٨.
- (11) عمر، أحمد مختار (٢٠٠٨م). معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، مج١، عالم الكتب، القاهرة، ص٤٠٧-٤٠٨
- (12) ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٨٤م). تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج٣٠، ص٦٣٥
- (13) النجدي، عبدالرحمن (١٩٩٦م). معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: صنفه محمد حسن الشريف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، مجلد الأول، انظر التمهيد.
- (14) ابن عاشور، محمد الطاهر، ج١٦، صص ٣٨-٣٩
- (15) ابن كثير، أبي المقداد إسماعيل بن عمر (١٩٩٩)، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ج٥، ط٢، ص١٨٨
- (16) القاسمي، محمد جمال الدين (٢٠٠٢). محاسن التأويل، دار الكتب العلمية، لبنان، ج٧، ط١، ص٥٦.
- (17) حسن، عباس. النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة و الحياة اللغوية المتجددة، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، دار المعارف - القاهرة، ١٩٦١-١٩٦٦ م، ص: ٥٣٧-٥٣٨
- (18) المرجع السابق، ص: ٥٤
- (19) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٩٥٥م، مادة (جَزَز).
- (20) فليح، أحمد. حروف الجر ومعانيها: دراسات نحوية، المركز القومي - عمان، ص ١٥
- (21) العبادي، صادق فوزي. التناوب بين حروف المعاني في النص القرآني: الدلالات والمعاني، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة؛ العراق، مج٩، ع٣٠، ٢٠١٤م، ص٦٥١.

- (22) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق وشرح دكتور عبداللطيف محمد الخطيب، ج ٢، ط ١، الكويت، ٢٠٠٢م، ص ٥١٣
- (23) ابن جماعة، شيخ الإسلام بدرالدين. كشف المعاني في المتشابه من المثنائي، تح الدكتور عبدالجواد خلف، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر ١٩٩٠، ط ١، ص ٥٠
- (24) الزمخشري، الكشاف، ٧١/٢
- (25) ديوان لأبي دؤاد الإيادي (٢٠١٠)، تحقيق أنوار محمود الصالحي وأحمد هاشم السامرائي، دار العصماء، سوريا، ص ٥٩
- (26) الزمخشري، الامام جارالله. الكشاف، طبعة دار إحياء التراث العربي، ١٧٤/٢، المحرر الوجيز ٤١٨/٤،
- (27) المرادي؛ الجنى الداني، ص ٣٤١.
- (28) الزمخشري، الامام جارالله. الكشاف، ٢٨٧/١.
- (29) الشوكاني، محمد بن علي. (١٩٩٤م)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الكتب العلمية. بيروت، ط ١، ٥٣٤/٥

المصادر والمراجع:

- (1) ابن جماعة، شيخ الإسلام بدر الدين. (1990)، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تح الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط1.
- (2) ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984م)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج30.
- (3) ابن فارس، (1979م). معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام هارون، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة.
- (4) ابن كثير، أبي المقداد إسماعيل بن عمر. (1999)، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الجزء الخامس، الطبعة الثانية.
- (5) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، 1955م، مادة (جَزَز).
- (6) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين. (2002م)، مغنى اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق وشرح دكتور عبداللطيف محمد الخطيب، ج2، ط1، الكويت.
- (7) حسن، عباس. (1961- 1966 م)، النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة و الحياة اللغوية المتجددة ، الجزء الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف - القاهرة .
- (8) ديوان لأبي دؤاد الإيادي، (2010)، تحقيق أنوار محمود الصالحي وأحمد هاشم السامرائي، دار العصماء، سوريا، ص59.
- (9) الزمخشري، الامام جار الله. الكشف. طبعة دار إحياء التراث العربي، 2/174، المحرر الوجيز 4/418.
- (10) السيوطي، جلال الدين، (1987م). الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق غازي مختار طليمات، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2.
- (11) الشوكاني، محمد بن علي. (1994م)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الكتب العلمية. بيروت، ط1.
- (12) العبادي، صادق فوزي. التناوب بين حروف المعاني في النص القرآني: الدلالات والمعني، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة؛ لعراق، مج9، ع30، 2014م.
- (13) عمر، أحمد مختار. (2008م)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، مج1، عالم الكتب، القاهرة،
- (14) فاضل، محمد نديم. (1436هـ)، التضمن النحوي في القرآن الكريم، ط1، مج1، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة
- (15) فليح، أحمد. حروف الجر ومعانيها: دراسات نحوية، المركز القومي - عمان.
- (16) القاسمي، محمد جمال الدين. (2002م)، محاسن التأويل، دار الكتب العلمية، لبنان، الجزء السابع، الطبعة الثانية.
- (17) المرادي، الحسن بن قاسم. (1992م)، الجنى الداني في حروف المعاني. تحقيق: فخرالدين قباوة ومحمد نديم فاضل. ط1، بيروت، دار الكتب العلمية
- (18) المعجم الوسيط، (2004)، مجمع اللغة العربية، ط4م، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر.
- (19) النجدي، عبدالرحمن. (1996م)، معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: صنفه محمد حسن الشريف، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، مجلد الأول، انظر التمهيد.